الليبيون القدماء
ودورهم في تجارة الصحراء

د. محمد امحمد سالم
كلية الآداب بالأصابعة ـ جامعة الجبل الغربي

إن دراسة التاريخ الليبي القديم لا زالت تواجهها كثير من الصعوبات والعقبات، نظراً لطبيعة الأرض الليبية الشاسعة التي انتشرت فيها القبائل الليبية القديمة التي غلب عليها الطابع البدوي، عدا القليل منها الذي كان مستقراً في المناطق الخصبة من الساحل الشمالي أو الواحات الداخلية. وتتمثل معظم هذه الصعاب في أن الدراسات الأثرية التي تختص بالتاريخ الليبي القديم، قد أهملت أو انعدمت تماماً سواء من الجهات الرسمية أو الأكاديمية، إذا ما قورنت بالدراسات الأثرية للدول المجاورة لنا، بالإضافة إلى أن بعضاً من هذه الدراسات ما زالت غير مكتملة، نتجة للحروب والصراعات بين القوى الاستعمارية التي استباحت الأرض الليبية أثناء الحربين العالميتين. ويبدو أن معظم الموجود منها الآن لا يزال في طور الدراسة،

وربما توقف كلياً لأسباب مختلفة. أما بعضها الآخر فكان يعتمد على النصوص أحادية الجانب التي لا تخلو بطبيعة الحال من المبالغات، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالحروب والصراعات السياسية والعسكرية، وفي بعض الأحيان كانت تلك المبالغات نتيجة لمحاباة السلطة الحاكمة في مصر الفرعونية أو في قورينا، أو نتيجة للأهواء والميول الشخصية التي حتمت على الكاتب أو المؤرخ أن يميل إلى هذا الجانب دون الجانب الآخر. وقد نلاحظ هذا الأمر جلياً في المصادر الفرعونية التي أشارت أو تحدثت عن قبائل الشمال الأفريقي التي احتك بها الفراعنة. أما الدراسات الإغريقية واللاتينية فقد اعتمد بعضها على روايات يغلب عليها الطابع الأسطوري، وهي الطريقة التي كانت شائعة عند المؤلفين القدماء. كما أن هذه المؤلفات لم تكن شاملة للأرض الليبية، لأن هؤلاء المؤرخين خصصوا كتاباتهم للقبائل التي كانت تعيش في الساحل أو القريبة منه، والتي تمكنوا من الوصول إليها أو السماع عنها، ورغم ذلك فقد انتابت هذه المؤلفات كثير من الأساطير، مثل التي نجدها في كتاب هيردوت الرابع وبليني واسترابو وغيرهم كثيرين.

ورغم ذلك فإننا نلتمس العذر لهؤلاء المؤرخين، نظراً لأن قبائل الشمال الأفريقي القديمة انتشرت في مساحات شاسعة من الأرض، التي لا يستطيع أي مؤرخ بلوغها أو معرفة أخبارها، كما أن هذه القبائل لم تترك آثاراً مادية أو كتابية ـ إلا ما ندر ـ يمكن الاستعانة بها، وهذه مشكلة حقيقية لا تساعد بطبيعة الحال على تتبع طرق معيشتها وأحوالها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بشكل دقيق، ولعل ذلك راجع إلى تنقلها الدائم، نتيجة لبحثها الدائم عن الماء والمرعى في ظل الظروف المناخية القاسية التي أجبرتها على الهجرة من موطنها الأصلي إلى مناطق أخرى بعيدة عنها، كانت أكثر ملاءمة لحياتها وحياة قطعانها ومواشيها.

كل تلك الأسباب حتمت علينا اللجوء إلى المصادر الفرعونية

والإغريقية، وهي مصادر أحادية الجانب، ولكننا ندين لها بكثير من المعلومات التي عثر عليها في النقوش المسجلة على المقابر والمعابد ومتون الأهرام، وفي كتابات المؤرخين الأخرى التي تحدثت عن قبائل الشمال الأفريقي القديمة ومناطق تواجدها، وأحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وكانت هذه المصادر قد سجلت تحرك هذه القبائل منذ العصور القديمة في اتجاهين مختلفين، الأول تحركها شرقاً عبر المناطق الشمالية إلى الغرب من نهر النيل عند مدينة مريوط وأبيس[1] وغيرها من مناطق الدلتا الأخرى. والثاني في اتجاه الواحات الغربية (سيوة والفرافرة والداخلة والخارجة). وكان هذا الفرع من القبائل القديمة قد سيطر على الواحات الغربية، ثم توغل فيما بعد في بلاد النوبة، وأسس أسرة ملكية في إقليم دنقلة، استمرت فترة طويلة من الزمن[2].

وكانت المصادر الفرعونية ـ التي نعتمد عليها في المقام الأول ـ قد أشارت إلى هذه القبائل منذ أيام الدولة القديمة (3200 ـ 2780ق.م)، وكانت تلك الإشارة قد تضمنتها إحدى اللوحات التي عرفت بلوحة تحنو[3]، وهي لوحة رسمت عليها نقوش لأنواع من الحيوانات وأشجار الزيتون وعلامة فسرها علماء المصريات بكلمة تحنو، ويعتقد أن هذه اللوحة تعود إلى عام 3200ق.م. كذلك عثر الأثريون في مصر على نقوش سجلت على قبر الفرعون «عحا» من الأسرة الأولى (3200 ـ 2980ق.م)، تدل على أن هذا الفرعون خاض حروباً كثيرة ضد الليبيين والنوبيين[4]. أما في عهد

---

(1) Herodotus, Founded by James, Loeb Classical Library, Book, 11, 18.

(2) فوزي فهيم جاد الله، «**مسائل في التاريخ الليبي قبل هيردوت**»، ليبيا في التاريخ، كلية الآداب، 1966م، ص72.

(3) صالح ونيس، «**ليبيا وجذورها الحضارية الموغلة في القدم**» مجلة آثار العرب، عدد 7، 8، ص37.

(4) أحمد فخري، **مصر الفرعونية**، مطبعة الأنجلو مصرية، 1978م، ص153.

الفرعـون سنفرو (2680 ـ 2656ق.م) ـ من الأسرة الرابعة ـ فتذكر المصادر الفرعونية أنه قام بغزو بلاد التحنو، وتمكن بعد حرب طاحنة من الانتصار عليها وأسر عدد من رجالها[5].

وقد استمر ذكر هذه القبائل بعد ذلك في مصادر الأسرة السادسة (2420 ـ 2280ق.م)، عندما قام أوني (حاكم جنوب مصر الفرعونية)[6] بقيادة جيش من المصريين، كان يضم بين صفوفه جنوداً من بلاد التمحو. أما في عهد الفرعون بيبي الأول (2402 ـ 2380ق.م) فتذكر المصادر ذاتها أن حرخوف (حاكم جنوب مصر) قد قام بعدة رحلات استكشافية وتجارية إلى الجنوب، وفي إحدى هذه الرحلات وجد حرباً تدور رحاها بين قبيلتي التمحو ويام النوبية، وقد انتهت هذه الحرب بالمصالحة بينهما. كما ذكر حرخوف في نقوشه أنه عاد من هذه الرحلة بثلاثمائة حمار، كانت محملة بالبخور والأبنوس والعاج وجلود الفهود وأنياب الفيلة والعطور والسمسم، وقد رافقه في هذه الرحلة عدد من زعماء القبائل الذين أرشدوه إلى طريق العودة[7].

وكان المؤرخون والباحثون قد اختلفوا على الطريق الذي سلكه حرخوف في أثناء رحلته للجنوب وعلى موطن التمحو نفسه، فقال كيس Kees إن حرخوف انطلق من قاعدة كانت تقع شمال أسوان بالقرب من مدينة أبيدوس، ثم اتجه إلى الواحة الخارجة ومنها إلى واحة «دنقلة» وأرض «يام» التي تقع جنوب الشلال الثاني، حيث كانت هذه النقطة تشكل ملتقي الطرق التجارية القادمة من بلاد النوبة أو القادمة إليها من الشمال، بينما اعتقد آركل

(5) فوزي فهيم جاد الله، ص62.

(6) بدأ حياته السياسية في عهد الفرعون ثني (الأسرة الثالثة) عندما أصبح مديراً لمكتب الزراعة في مدينة (نخن)، ثم قائداً للجيش الذي حارب في فلسطين. انظر، أحمد فخري، ص150، 151.

(7) **نفسه**، ص53.

Arkel أن قوافل حرخوف انطلقت من أسوان إلى واحتي دنقله وسليمة، متخذة بذلك طريقاً فرعياً من درب الأربعين الذي كان يتجه من الواحات الغربية إلى دار فور، حيث تقيم قبيلة التمحو التي لا زال اسمها ـ بحسب رأي آركل ـ باقياً في اسم قبائل التاما Tama في شمال واداي(8). كما رجح أن هذه القبيلة كانت تسكن وادي» هوار «بين دارفور والنيل ووادي حلفا، وربما استند في ذلك على شكل المقابر التي عثر عليها في هذه المنطقة، وهي التي أطلق عليها (آثريو) اسم مقابر المجموعة» ج «C. Group أو فرع الليبيين(9) الجنوبيين(10).

(8) فوزي فهيم جاد الله، «**بين ليبيا والسودان في العصور القديمة**»، مجلة البحوث التاريخية، عدد 2، مركز جهاد الليبيين، 1993م، ص22.

(9) ورد اسم الليبو في المصادر الفرعونية منذ عصر مرنبتاح (1222 ـ 1211ق.م) عندما قاد زعيم هذه القبيلة قبائل الشمال الأفريقي وشعوب البحر، وزحف بهم على الدلتا الغربية، كما ورد في المصادر الإغريقية منذ عصر هوميروس. وكانت التسمية تطلق على كل الأراضي الممتدة من نهر النيل شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً.

انظر، Homer, the Odyssey, Translated by A. T. Mury, Loeb Classical Library, Book. 1v.

وانظر، Herodouts, 1. IV.

وانظر، Pliny, Natural History, Translated by H. P. Ackham, Loeb Classical Library, Book, v.1.

Herodotus, 11. 18.

(10) اكتشفت مقابر المجموعة (ج) في المنطقة التي تقع بين الشلال الأول والثاني، وتمتاز هذه المقابر بشكلها البيضاوي أو الدائري. ومن خلال دراسة تحليلية للجماجم وعادات الدفن تبيّن أنها تخص جماعات ليبية متجولة، وكانت مقابر هذه المجموعة تشبه المقابر التي كانت منتشرة في شمال أفريقيا من ليبيا حتى الجزائر، ومقابرالمنطقة الجنوبية من جزيرة كريت. انظر، أحمد حسن غزال، «ملاحظات حول التأثيرات الليبية في مقابر سهل ميسارا جنوب جزيرة كريت في الألف الثالثة ق.م»، مجلة كلية الآداب، عدد 7، جامعة بنغازي، 1975م، ص292، 293. وانظر، فوزي فهيم جاد الله، «بين ليبيا والسودان»، ص23، 24.

ومن ناحية أخرى يقول عالم الآثار رايزنر إنه قرأ كلمة تمحو في لوحة تابيري (إحدى زوجات بعنخي مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين) الموجودة الآن في متحف الخرطوم، كما يقول إنه عثر في «الكورة» على مقبرة لزعيم ليبي، استطاع أن ينصب نفسه ملكاً على إقليم دنقلة. أما بيتس O. Bates فيذكر أنه تم العثور على نقش في المنطقة التي كانت تتواجد بها المجموعة (ج)، يشير إلى إقليم كان يسمَّى (تحنوت)، يقع في الجزء الجنوبي من النوبة السفلى، ربما يرجع تاريخه إلى عهد الفرعون رمسيس الرابع (1160 ـ 1154ق.م). وكان الدكتور فوزي فهيم جاد الله قد علق على كلمة تحنوت التي وردت في هذا النقش بقوله إن المصريين القدماء كانوا لا يفرقون بين لفظ تمحوت وتحنوت[11]، ولذلك يعتقد بأن المقصود بالكلمة هي تمحوت أي التمحو وليست التحنو، ولكن في كل الأحوال إن ما يهمنا من هذا هو تواجد التمحو في بلاد النوبة الذين دخلوها عن طريق الواحات الغربية، ثم استقروا بها، وبمرور الزمن صار لهؤلاء القوم شأن كبير ونفوذ قوي، تمكنوا على إثره من السيطرة على الأراضي الزراعية والرعوية والأراضي المؤدية إلى مناجم الذهب. ويعتقد أن وجود التمحو في هذه الأراضي الواسعة، قد ساعدهم على التحكم ـ ولو بشكل جزئي ـ في طرق القوافل التجارية القادمة من وسط القارة إلى السواحل الشمالية الإفريقية، بحكم تواجدهم في هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة، التي كانت تزخر بالبضائع والسلع المختلفة التي كانت مرغوبة من قبل شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط، ولعل ذلك الأمرهو الذي دفع الفراعنة إلى الصراع مع هذه القبائل.

ويعتقد بأن مؤشرات هذا الصراع قد بدأت منذ أيام الدولة القديمة عندما اكتشف الفراعنة ثروات بلاد النوبة من خلال اتصالهم بها، أو من خلال الرحلات التي قام بها حرخوف، وعاد منها محملاً بالسلع والبضائع

(11) **نفسه**، ص27. وانظر، نفسه «مسائل في التاريخ الليبي»، ص72.

الأفريقية، وهي بضائع كان الفراعنة يبحثون عنها إما لاستهلاكها محلياً أو لتصديرها للخارج. وكانت بعض هذه السلع والبضائع من إنتاج بلاد النوبة نفسها، لأن مناخها كان ملائماً لحياة الفيلة والفهود، وملائماً للنباتات والأشجار التي تنتج الأخشاب والبخور. وكان العالم آركل قد ذكر أن إقليم دارفور كان ينتج الأبنوس والعاج والبخور[12]. كذلك كانت بلاد النوبة من أهم مناطق إنتاج الذهب الرئيسة في العالم القديم، وكانت تلك المناجم تقع بين النيل والبحر الأحمر، وقد ذكرت إحدى الباحثات أنه تم العثور في منطقة «فرس» ببلاد النوبة على بعض الأحواض التي كانت معدة لغسل الذهب وتنقيته من الشوائب، إضافة إلى وجود بعض المنشآت المروية التي غطت جدرانها برقائق من الذهب. كما أضافت هذه الباحثة بأن الأثريين عثروا في بلاد النوبة على بعض الأفران التي كانت معدة لصهر الحديد[13].

وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نفسر حرص الفراعنة على استمرار الرحلات الاستكشافية والتجارية التي عهدوا بها إلى حكام الجنوب، مثل أوني وحرخوف أو إلى الوزراء من أمثال «منتوحتب» وزير سنوسرت الأول (1972 ـ 1928ق.م). وكان هؤلاء الحكام يشرفون إدارياً على الواحات الغربية، وكان يلقب كل من يتولى منهم هذا المنصب بالمشرف على الصحراء الغربية. وقد ذكرت المصادر الفرعونية أن هذا اللقب كان يحمله عدد من الحكام، كان من بينهم «عانخت» حاكم الأشمونيين[14]. أما مهمة هؤلاء الحكام فربما كانت تتركز على اكتشاف أيسر الطرق وتأمينها من سطوة قبائل الشمال الأفريقي، أو حمايتها من بعض قطاع الطرق واللصوص، حتى

---

(12) **نفسه**، «بين ليبيا والسودان»، ص23.

(13) حندوقة إبراهيم فرج، **نماذج من الحضارة الإفريقية القديمة وآثارها**، القاهرة، 2003م، ص 100.

(14) رجب عبد الحميد الأثرم، **تاريخ برقة السياسي والاقتصادي**، جامعة قاريونس، بنغازي، 1988م، ص28.

تتمكن القوافل التجارية من الوصول إلى أقاليم النوبة للحصول على السلع والبضائع الأفريقية، ثم الحصول على الذهب الذي صار مرغوباً من الفراعنة، وخاصة عندما شحت مناجمه التي كانت منتشرة في الصحراء الشرقية، وفي الرمال الفيضية التي يحملها النيل، وفي عروق صخور الكوارتز[15]. وهكذا أخذ الفراعنة يبحثون عن هذا المعدن النفيس في بلاد النوبة التي ربما سيطروا عليها في بعض الفترات التاريخية المتأخرة، حيث ذكرت بردية هاريس أن رمسيس الثالث كان يملك مناجم للذهب في بلاد النوبة[16].

ولما كانت قبيلتا التحنو والتمحو تسيطران على الواحات الغربية وعلى بعض الأراضي في بلاد النوبة التي كانت تمر عبرها القوافل التجارية[17]، لذلك كان لزاماً على الفراعنة استمالة أو إخضاع هاتين القبيلتين. ولعل هذا الأمر يجعلنا نرجح بأن المصالحة التي قام بها حرخوف بين قبيلة التمحو وقبيلة يام النوبية، كانت تهدف إلى تأمين الطريق التجاري القادم من مصر إلى الواحات وبلاد النوبة، ومن ثمَّ بات من الضروري كسب ود هاتين القبيلتين، اللتين كانت لهما خبرة بمسالك الصحراء ودروبها، وهو الأمر الذي اعترف به حرخوف نفسه عندما قال إنهم أرشدوه إلى طريق العودة. أما الصراع الذي نشب بين قبيلة التمحو ويام، فربما يرجع إلى رغبة كليهما في السيطرة على هذا الطريق، ثم السيطرة على الأراضي الواقعة جنوب وادي حلفا، ولكن رغم جهود الفراعنة المتواصلة لإخضاع هذه القبائل، فإنهم اصطدموا بكثير من العقبات، بسبب اتساع الأراضي التي كانت تسيطر عليها هاتان القبيلتان، وبسبب صعوبة اجتياز الصحراء من قبل جيش كبير يحتاج

(15) ألن جاردنر، **مصر الفراعنة**، ترجمة: نجيب ميخائيل وآخر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973م ص59.

(16) أحمد فخري، **مصر الفرعونية**، ص375.

(17) ألن جاردنر، ص52.

إلى الماء والمؤن والإمدادات الأخرى، إضافة إلى شدة مراس هاتين القبيلتين، ومن ثمُّ فقد باءت جهود الفراعنة بالفشل طيلة تاريخهم القديم.

ورغم توقف الصراع بين الفراعنة وتلك القبائل في بعض الفترات التاريخية، فإنه كان يتجدد بين الحين والآخر، بسبب المحاولات المستمرة من هذا الطرف أو ذاك للسيطرة على الصحراء الغربية وعلى طرق التجارة الصحراوية، ومن الأمثلة على ذلك الحملة التي أرسلها الفرعون رمسيس الثاني (1290 ـ 1223ق.م) إلى بلاد التحنو، التي خلدها هذا الفرعون في رسومه على جدران معبد الكرنك[18].

ومن جهة أخرى يمكننا أن نستنتج من النصوص الفرعونية ما يشير إلى سيطرة هذه القبائل على تجارة الصحراء الكبرى، إذ أشارت النصوص التي تعود إلى الأسرة الثامنة عشرة (1551 ـ 1306ق.م) أن الملكة حتشبسوت حصلت من قبيلة التحنو على سبعمائة سن فيل[19]، وهي التي لم يثبت وجودها في ليبيا في ذلك العصر، ومن ثمَّ فإننا نعتقد بأن تلك البضاعة كانت مجلوبة من مناطق ما وراء الصحراء، ربما تكون تشاد أو السودان التي عثر فيها على فخَّار المجموعة (ج) التي كانت تخص الفرع الجنوبي من قبائل الشمال الأفريقي في كل من وادي هوار بدارفور وكرمة (تقع جنوب الشلال الثالث) ووادي هوى بليبيا، وهذا يشير إلى أن التمحو الذين كانوا قد أنتجوا الفخَّار في ليبيا هم أنفسهم الذين أنتجوا الفخَّار في بلاد النوبة، كما عثر على رسوم الماشية المنقوشة على الصخور في كل من كردفان وجبل العوينات، وعلى نقوش أخرى كانت منقوشة على أعمدة قبورهم في وادي حلفا بالنوبة، وكانت هذه الرسوم تتشابه مع رسوم فخَّار المجموعة (ج)[20]، مما يوحي

---

(18) **نفسه**، ص298.

(19) الأثرم، ص79.

(20) فوزي جاد الله، **«بين ليبيا والسودان»**، ص26.

بأن التمحو وصلوا إلى هذه المنطقة ثم تمكنوا بعد ذلك من بسط سيطرتهم عليها، وقد سهل لهم هذا الأمر لعب دور الوسيط التجاري بين شعوب ما وراء الصحراء وشعوب الشمال الإفريقي عن طريق القوافل التجارية التي كانت تأتي بالحيوانات وجلود الفهود وأنياب الفيلة وريش النعام وبيضه والذهب والأخشاب الثمينة، كما كانت هذه القبائل تصدرالسلع والبضائع المحلية، مثل الصوف وزيت الزيتون[21] وغيرها، وهي التي حصل عليها الفراعنة إما عن طريق الغنائم أو الجزية أو التجارة.

ولا شك أن بعض هذه البضائع كانت مجلوبة من جنوب الصحراء الكبرى، بينما بعضها الآخر كان متوفراً في ليبيا ذاتها، ويمكن أن نستنتج ذلك من خلال حديث هيردوت عن الحيوانات في ليبيا عندما قال بأن هناك كثيراً من الحيوانات البرية التي تعيش في بلاد البدو بليبيا، كان من بينها التياتل البيضاء والظباء وبقر الوحش والحمر والمها والثعالب والضباع والكباش البرية وابن آوى والنمور الرقطاء والنعام[22]. ويعتقد بأن الليبيين القدماء كانوا يصيدون هذه الحيوانات، ويستفيدون من لحومها وجلودها سواء في صناعة المتاع أو التجارة مع الفراعنة، كما كانوا يربون أعداداً هائلة من قطعان الماشية والأغنام والماعز. وقد ذكرت إحدى البرديات التي تعود إلى أيام الفرعون رمسيس الثالث أنه غنم من الليبيين في إحدى معاركه عشرات الآلاف من الماشية التي كانوا يحصلون منها على اللحوم والجلود والصوف، وكانت الجلود ذات قيمة اقتصادية هائلة عند الشعوب القديمة، حيث أشارت النصوص التي تعود للملكة حتشبسوت إلى أنها غنمت من قبيلة

(21) شامو، **الإغريق في برقة**، تر: عبد الكريم الوافي، ط1، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1990م، ص290. وانظر، غوليام ناردوتشي، استيطان برقة قديماً وحديثاً، ط1، تر: ابراهيم أحمد المهدوي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الجماهيرية الليبية، ص130.

(22) Herodotus, 1v, 192.

التحنو الليبية عدداً كبيراً منها(23). أما فيما يتعلق بزيت الزيتون فقد كان يستخلص من منتجات أشجار الزيتون التي كانت ولا زالت تنمو في الهضبة الشرقية من ليبيا (الجبل الأخضر). ومنذ عهد الفراعنة الأوائل كانت النصوص المصرية تشير إلى أن المصريين القدماء، كانوا يحصلون على زيت الزيتون من قبيلة التحنو، كما كانوا يستوردون الأخشاب والأبقار(24). أما الوثائق الفرعونيه التي تعود لعهد مرنبتاح (1223 ـ 1211ق.م) فقد ذكرت أن هذا الفرعون غنم في أثناء حروبه مع الليبيين أواني وكؤوساً فضية وسكاكين بلغ عددها حوالي 3174 قطعة، كما غنم حوالي 9111 سيفاً برونزياً. ويرى بعض المؤرخين أن هذه السلع ربما تكون مستوردة من أوربا، لأن ليبيا لم تكتشف فيها المعادن، ولم يعثر فيها على أفران لصهرها(25)، وإن كانت هناك دلائل أخرى تشير إلى وجودها في بلاد النوبة والنيجر وربما تشاد القريبة من ليبيا، وإذا صح الرأي الأول فهذا يعني أن الليبيين القدماء مارسوا التجارة مع بعض البلدان الأوربية منذ العصور القديمة.

وكان من أشهر القبائل الليبية التي لعبت دوراً بارزاً في التجارة الليبية الأفريقية منذ وقت مبكر، قبيلة (الجرامنتس) التي قامت بدور الوسيط التجاري بين الشمال والجنوب، حيث كانت القوافل تأتي محملة بالسلع والبضائع من المناطق الأفريقية المختلفة(26)، ثم تنطلق في قوافل أخرى إلى

(23) الأثرم، ص72.

(24) **نفسه**، ص80.

(25) **نفسه والصفحة نفسها.**

(26) يرى بعض المؤرخين استبعاد العربات التي يجرها جوادان من نقل البضائع، لأنها كانت صغيرة الحجم ولا تستوعب أكثر من شخص، كما أنها لا تناسب مع الأوزان الثقيلة من البضائع. وكانت هذه العربات غير قادرة على شق طريقها في الجبال والطرق الوعرة. انظر، ج. كامب، البرابرة الذاكرة والهوية، تر: جاد الله عزوز الطلحي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2005 م، ص92، 93.

الشمال عبر مسالك صحراوية طويلة. وربما كانت تلك القوافل تحمل إلى جانب المنتجات الإفريقية منتجات صناعية محلية، إذ تشير المصادر إلى أن أفراد هذه القبيلة كانوا ينتجون الفخَّار ويصنعون الحليَّ، وقد وجد الأثريون في مدينة جرمة بقايا الأفران وبقايا شقف الفخَّار وبعض الصناعات الدقيقة، مثل التوكات المصنوعة من الذهب الخالص والأساور الفضية وعقود الزينة التي صنعت من الزجاج أو من الأحجار الكريمة، كالفيروز الأخضر والعقيق الأحمر[27]. ولعل هذه المصنوعات والبضائع كانت تستبدل ببضائع الشمال مثل الأقمشة والجرار والأباريق وقوارير العطور الفينيقية والملابس وغيرها[28].

ومن جهة أخرى يعتقد بعض المؤرخين أن الجرامنتس مارسوا تجارة الرقيق إلى جانب التجار في السلع والبضائع الأخرى، وربما استندوا في رأيهم هذا على ما ذكره المؤرخ هيردوت من أن الجرامنتس كانوا يطاردون الأثيوبيين بعرباتهم ذات الخيول الأربعة[29] من أجل تأمين قوافلهم من السطو والنهب أو لبيعهم إلى الفينيقيين والإغريق في برقة. وكان أحد الباحثين قد ذكر قصة مفادها أن حصن قولاي (أبي نجيم الحالية)، كان فيه أحد الأرقاء الذي حاول الهرب، ولكن الجرامنتس أعادوه إلى الحصن. ويقول هذا الباحث إن المرء لا يستطيع أن يجزم بأن هذا الشخص كان فعلاً من الأرقاء، أو من الخدم الذين كانوا يعملون في هذا الحصن[30].

وقد كانت القوافل التجارية تتعرض في بعض الأحيان إلى الأخطار الجسيمة، وخاصة عندما تقع في أيدي بعض الجماعات البدوية، حيث ذكر

---

(27) صالح ونيس، ص31.

(28) **نفسه والصفحة نفسها.**

(29) Herodotus, IV,183.

(30) عبد الحفيظ الميار، **الحضارة الفينيقية في ليبيا**، ط1، مركز جهاد الليبيين، 2001م، ص187.

ديودروس الصقلي قصة تقول إن بعض الجماعات الليبية التي لا تخضع لملك قوي قادرعلى كبح جماحها، كانت تنتهج أسلوب الغزو والنهب الذي يعد شغلها الشاغل، فهي تهاجم على حين غرة، فتنهب كل ما يقع في قبضتها ثم تتوارى عن الأنظار. وكانت هذه الجماعات تعيش حياة بدائية، فهم يلبسون جلود الماعز، ويتسلحون بثلاثة رماح، وكانوا يحملون الحجارة في أجربة من الجلد، ويقضون أيامهم في الصحراء، وكان لهم رؤساء يقيمون في قلاع حول الآبار أو مصادر المياه[31]. ولعل هذه القصة تتشابه مع ما ذكرته بعض المصادر من أن النسامونيس كانوا يغيرون على السفن الراسية في المواني القريبة من مضاربهم[32].

ورغم الأخطار التي كانت تواجهها التجارة الإفريقية فيما وراء الصحراء، فإنها ساهمت في ازدهار ونمو اقتصاد المدن الليبية مثل جرمة وغدامس ولبده الكبرى وأويا وصبرا ته وبعض المناطق الأخرى التي تقع على الطريق نفسه، ويمكن أن نلاحظ ذلك من خلال ما اكتشف فيها من آثار، مثل الفخَّار المختلف الأشكال والأحجام والألوان وأواني الشرب والمراود العاجية المصنوعة من العاج وتماثيل الآلهة التي عثر عليها في لبدة الكبرى وأويا، ثم رمز الفيل الذي اتخذته لبدة وصبراته شعاراً لها[33]. كما ساهمت في ازدهار علاقاتها التجارية النشطة مع بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث عثر الأثريون على فخَّار يوناني ذي أشكال حمراء قرب قصر الضيافة بطرابلس يعود تاريخه إلى القرن الخامس، كذلك عثروا في المقبرة البونيقية تحت مسرح لبدة على أوانٍ فخَّارية من النوع الكمباني، يرجع تاريخها إلى القرن الرابع ق.م. وكان الأثريون قد عثروا على مثيلات لهذه

---

(31) علي فهمي خشيم، **نصوص ليبية**، ط2، دار مكتبة الفكر، طرابلس ـ ليبيا، 1975م، ص152، 153.

(32) الأثرم، ص82.

(33) عبد الحفيظ الميار، ص190.

الصناعة في قرية مليته بصبراته بأشكال وأنواع متعددة[34]. ويبدو أن محاولة انفتاح هذه المدن على الخارج قد تعارض مع سياسة قرطاجة، التي كانت ترمي إلى عزل هذه المدن عن الخارج، مما جعلها تفرض حظراً على المدن الثلاث، لكي تحتكر وحدها التجارة الخارجية.

أما النظام المتبع في المبادلات التجارية فكان في البداية نظام المقايضة، وهو الذي أشار إليه هيردوت في قصة رواها عن القرطاجيين، مفادها أن قوماً من الليبيين كانوا يعيشون في مكان خلف أعمدة هرقل، كان يأتي إليه القرطاجيون ببضائعهم ويفرغونها على الشاطىء، ثم يوقدون ناراً يتصاعد منها الدخان ليراه الأهالي، وعندما يأتي الأهالي يضعون الذهب إلي جانب تلك البضاعة، ثم يتوارون عن الأنظار، فيأتي القرطاجيون وينظرون إلى الذهب فإن رأوه مجزياً أخذوه وذهبوا إلى سفنهم، وإن رأوه غير ذلك عادوا إلى سفنهم، وعاد الأهالي لزيادة كمية الذهب[35].

ومن المرجح أن القرطاجيين كانوا قد اهتموا بالفعل بالتجارة الصحراوية التي جنوا منها أرباحاً طائلة، ولهذا أقاموا بعض المحطات التجارية على خليج سرت كانت تستقبل القوافل التجارية المحملة ببضائع أفريقيا من العاج والجلود والأخشاب والأبنوس والذهب والصمغ والأصباغ وريش النعام وبيضه[36] والعقيق الأحمر، وهو الذي أطلق عليه بليني Pline اسم (الحجر القرطاجي)، وقال إنه كان مستورداً من إثيوبيا[37]. ويرى

(34) تولى حكم قورينائية بعد ثورة قورينا سنة 313 ق.م، وقد حاول أن يستقل بالإقليم مستغلاً الهزائم التي لحقت ببطليموس الأول (323 ـ 283ق.م) في الحرب السورية. انظر، الأثرم، محاضرات في تاريخ ليبيا القديم، ط3، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1998م، ص122، 123.

(35) Herodotus, IV, 196.

(36) الأثرم، **تاريخ برقة السياسي**، ص80.

(37) علي خشيم، ص106.

بعضهم أن هذا الحجر كان متوفراً في أراضي الجرامنتس أو الجيوتولي بحسب ما ذكره استرابو[38]. وربما كان هذا صحيحاً، لأن كلمة إثيوبيا كانت تعني عند القدماء سكان الكهوف التي تقع في جنوب ليبيا.

وكانت من أهم المحطات والموانئ القرطاجية لبدة وأويا وصبراته وميناء (كاركس) الذي تحدث عنه استرابو Strabo، وقال إنه استخدم من قبل القرطاجيين كميناء تجاري، كانوا يحملون إليه الخمر، ليبادلوه بأحمال من السلفيوم[39] مع الليبيين دون علم الإغريق.

وفي العصرالإغريقي ازدهرت التجارة الليبية منذ بداية القرن السادس ق.م، عندما أصبحت قورينا مركزاً حضارياً كان يضاهي الحضارة الفرعونية في الشرق والحضارة القرطاجية في الغرب. وفي تلك الفترة كانت قورينا تصدر إلى مصر الصوف والخيول والعطور والفخّارالذي عثر على قطع منه في نقراطيس، كما عثرعلى نقود قورينية في عدة أماكن في مصر مثل (سخا) و(الرملة) و(دمياط) وقرية (ميت رهينه)[40]. ويرى بعضهم أن هذه النقود ربما تكون من مخلفات الجزية التي كانت تدفعها قورينا لمزربان الفرس[41]. وكانت تستورد بالمقابل الكتان والزجاج والخزف وقد عثر في خزنة معبد أرتيمس بقورينا على سلع مصرية مثل السلال الزجاجية والخزفية وبعض أصداف البحر الأحمر، وهذا يدل دون ريب على المبادلات التجارية بين قورينا ومصر الفرعونية.

---

(38) الميار، ص59.

(39) علي خشيم، ص83.

(40) شامو، ص297.

(41) صالح ونيس، ص32.

أهم الطرق التجارية:

بما أن أرض ليبيا أرض منبسطة، لا توجد بها عوائق طبيعية تذكر، لذلك كانت الطرق كثيرة ومتعددة الاتجاهات، فمنها ما كان يخترق الصحراء ومنها ما يسير بمحاذاة الساحل. وكان من أشهر الطرق المعروفة منذ غابر الأزمان الطريق الساحلي الذي سارت عليه الحملة الفارسية التي دمرت مدينة برقة(42)، وسار عليه أوفيلاس(43) أثناء تحالفه مع أجاثوكليس طاغية سيراكوزا(44). ثم طريق درب الأربعين الذي يبدأ من أسيوط حتى الواحات الخارجة، ثم يتجه جنوباً إلى واحة «سليمة» و«بئرالنطرون» حتى يصل إلى «الفاشر» في مدة لا تتجاوز شهرين(45). وكان لهذا الطريق فروع أخرى تصله بالواحات الشمالية مثل واحة آمون «سيوة» و«الداخلة» و«الخارجة» و«الفرافرة». وهناك طريق آخر يمتد من واحة آمون إلى سرت، ويتفرع من هذا الطريق طريق آخر يتجه من واحة آمون إلى دار فور. أما جرمة فكانت ترتبط بطرق برية تصلها بالجنوب وبالمدن الثلاث أويا ولبدة وصبراته في الشمال.

الخلاصة:

نستنتج من هذا البحث أن القبائل الليبية القديمة، تمكنت من السيطرة على الواحات الغربية وبعض المناطق الغربية من الدلتا، وقد أدى ذلك إلى الدخول في صراع طويل مع الفراعنة بدأ مع بداية الدولة القديمة، وقد كلف هذا الصراع الفراعنة كثيراً من الجهد والمال والرجال، مما اضطرهم إلى تغيير هذه السياسة في بعض الفترات التاريخية. كما نستنتج أن هذه القبائل كانت لها السيادة على الصحراء الغربية، إلا أن الظروف المناخية القاسية

---

(42) حندوقة إبراهيم فرج، ص76.

(43) الأثرم، تاريخ برقة السياسي، ص80.

(44) **نفسه**، ص81.

(45) أحمد فخري، ص154.

كانت سبباً في ترك هذه الواحات والهجرة إلى بلاد النوبة، حيث تتوفر المياه والأراضي الخصبة.

وبذلك صارت لها السيادة على بعض المناطق في بلاد النوبة، بل ربما امتدت سيادتها على المناطق الشرقية من تشاد الحالية، ومما يدل على ذلك بقايا القبور والفخار والرسومات الصخرية.

ولعل هذا التواجد كان سبباً في السيطرة على الطرق التجارية، الذي ساهم في ازدهار هذه القبائل اقتصادياً، يدل عليه فخامة قبورها المكتشفة حديثاً. كما ساهمت هذه القبائل في ازدهار المدن الليبية الواقعة على طرق التجارة الصحراوية أو على الساحل الشمالي. أضف إلى ذلك أن بعضاً من هذه القبائل لعب دور الوسيط التجاري بين أقاليم ما وراء الصحراء ومصر الفرعونية وقورينا وقرطاجة.